مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويا

العدد الثالث
1986

- صدى الأدب العربي في الدعوة الإسلامية
- مخطوطات ليبية
- وصول الإسلام إلى ساحل مليبار
- التيارات الفلسفية وعلاقتها بالصراع على الحكم

الأستاذ السائح علي حسين

إن من أصعب الأمور وأعصاها على القلم معالجة الأمور العظيمة في كلمات معدودة ومساحات محددة مسبقاً وفق منهج ثابت .

وهذا ينطبق تمام الانطباق على سيرة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام فهو نبي يؤمن به اتباع ثلاث ديانات سماوية تمثل غالبية سكان المعمورة .

وقد تتبع كُتَّاب التوراة حياة إبراهيم بتفصيل كثير لبعض الجوانب مثل تنقلاته وأزواجه ، والصراع بينهن ، وعلاقاته مع لوط ابن أخيه ووفاته ومكان دفنه الخ . [1] .

كما ذكره كتاب الأناجيل ورسل المسيحية في غير موضع من كتاباتهم . [2] . وذكره القرآن 69 مرة موزعة على 25 سورة .

ولا يخلو مرجع تاريخي قديم من التعرض لسيرته أو الإشارة إليها سواء منها القديم المعتمد على الرواية ، والحديث المعتمد على الحفريات وشواهد الآثار .

(1) سفر التكوين الاصحاحات : 12 ـ 13 ـ 14 ـ 15 ـ 16 ـ 17 ـ 18 ـ 20 ـ 21 ـ 22 ـ 23 ـ 24 ـ 25 ـ 26 ـ 28 ، ويشوع الاصحاح 24 .

(2) متى 8 فقرة 11 ولوقا 13 فقرة 16 ويوحنا 8 فقرة 33 ، 39 ، 40 ، 52 حتي 58 . وأعمال الرسل 3 فقرة 25 ، 7 فقرة 16 ، 23 ورسالة بولس روميه 3 الفقرات من 1 ، 3 ، 9 إلى 16 — 13 .
وبولس إلى أهل غلاطية من 6 إلى 29 وبولس إلى العبرانيين 7 من 1 ـ 6 (العهدان ط مطبعة الامريكان بيروت سنة 1896 م) .

وقد كان العرب منذ جاهليتهم الأولى يعتزون بانتسابهم لابراهيم عليه السلام ويعتبرونه الأب الأعلى لهم .

ويرد القرآن الكريم على هؤلاء جميعاً بقوله : -

« ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، أن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ » 67 - 68 آل عمران .

فهو ليس يهوديا ولا نصرانيا لأنه اسبق منهما بقرون وكان حنيفا مسلما وما كان من المشركين وكفى بهذا الانتساب شرفا .

ومن المعلوم بداهة أن أسفار العهد القديم « التوراة » أكثر اهتماما بتفصيلات الحوادث التاريخية وتتبع الأسماء والانساب بينما يهتم القرآن الكريم بجوانب العظة في القصة واستخلاص العبرة من أعمال الرجال ، فالعمل وحدة قياس للمبادىء ولا قيمة للزمان والمكان والاشخاص ، لهذا فإن المصادر التي أشرت إليها يكمل بعضها بعضا لتوضيح الصورة وإن كان القرآن الكريم هو الأساس الثابت لتمييز الخطأ من الصواب . لأن المصادر اليهودية كتبت في فترات متباعدة ، وأقدمها عهدا بينه وبين إبراهيم الف سنة . [3] .

ومصادر التاريخ وإن اتخذت منهج الاسناد فإنها تنتهي إلى منبع واحد في الغالب هو هذه المصادر اليهودية ، والتاريخ بمنهجه الحديث أغلبه افتراضات وظنون .

ولصعوبة تتبع التفصيلات في موجز كهذا فإنني اعتبر هوامشه دليلاً للقارىء المحب لاستيفاء الموضوع حقه من الدراسة والتمحيص .

والمؤكد من هذه المصادر أن إبراهيم عليه السلام من أصل سامي ، ذلك الأصل الذي برز دوره في التاريخ في شبه جزيرة العرب والهلال الخصيب[4] .

وتحدد المصادر موضع ولادته بأنها بمدينة أور الكلدانية[5] وإن كانت بعض

---

(3) أبو الأنبياء / عباس محمود العقاد ص40 المجموعة الكاملة ج 11 ط دار الكتاب اللبناني .

(4) المصدر نفسه ص 186 .

(5) سفر التكوين 4 فقرة 10 ، ويقول ياقوت الحموي عن مدينة اور أنها من اصقاع رامهرمز بخوزستان فيه =

المصادر التاريخية الإسلامية تشير إلى احتمال ولادته بأماكن أخرى وهي احتمالات لا دليل عليها[6] .

ويحدد علماء الآثار ودارسو الحفريات أن إبراهيم وجد حوالي القرن العشرين قبل الميلاد فهو معاصر لحمورابي في جنوب العراق وملوك الرعاة ـ الهكسوس ـ في مصر أي أن ذلك كان حوالي سنة 2000 قبل الميلاد[7] .

وفريق آخر يرى أنه كان معاصراً لوالد حمورابي الذي كان يجلس على عرش بابل حوالي سنة 2200 ق . م .[8] .

ويتفق مؤرخو الإسلام مع ما ورد في نسبه وفقا لرواية سفر التكوين فهو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سارغ بن ارغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن قينان ابن ارفخشد بن نوح .[9] . مع اختلافات يسيرة بينها ، ولكن القرآن الكريم يذكر أن اسم والده آزر « ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر اتتخذ اصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ »74 الأنعام .

وقد تأثر بعض المفسرين بما يقوله الشيعة من أن آزر عمه وليس اباه والأب يطلق على العم كما في قوله : « ﴿ نعبد الهك واله آبائك اسماعيل وإسحاق ﴾ »133 البقرة . ولأن والد إبراهيم يعتبر من اجداد الرسول ولا يكون جده كافراً مستدلين بقوله تعالى : ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ » وقول الرسول (لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى ارحام الطاهرات) ، ولما هو ثابت في التوراة من أن والده تارح ، ولما أجمع عليه النسابون .

وقد نوقشت هذه كلها ، فتقلبه في الساجدين تعني مدوامته العبادة من العابدين ، والطاهرين والطاهرات هم الذين لم يمارسوا الزنا واجماع النسابين لا معنى له

= قرى وبساتين/ معجم البلدان ج 1 ص 278 ط دار صادر . ويقول الطبري أنها قرية بين البصرة والكوفة/ تاريخ الطبري ج 1 ص 121 ط مؤسسة عز الدين .
ويحددها ول ديورانت بأنها على نهر الفرات وهي القرنة الحديثة / قصة الحضارة ج 2 ص 21 ترجمة زكي نجيب محمود .

(6) انظر تاريخ الطبري ج 1 ص 120 وأبو الأنبياء ص 89 .

(7) أبو الأنبياء ص 66 ، 68 وموجز تاريخ العالم هـ ج ويلز ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ص 90 ط الألف كتاب/ مصر .

(8) قصة الحضارة ول ديورانت ج 2 ص 324 .

(9) تاريخ الطبري ج 1 ص 120 والعبر لابن خلدون ج 2 ص 33 مؤسسة جمال .

لأنهم ينقلون عن بعضهم فيرجع الأمر إلى خبر الاحاد ، ونص التوراة لا يعارض القرآن .

ويوفق بعضهم بين الاثنين بأن أحد الاسمين علم والآخر لقب اشتهر به ومعناه المخطىء أو اسم لصنم كان يسدنه ويعبده فسمي به لتعلقه به الخ . . ولكن هذا تكلف لا دليل عليه من نص قاطع يعارض صريح الآية .

وهناك شبهة وهي أن مخاطبة إبراهيم فيها غلظة لا تتفق مع أدب الابناء مع الآباء ، ورُدت هذه بأن المجادلة تدرجت من اللين إلى القسوة إذا ما قارنا بقية الآيات وفقا لمتطلبات الموقف وأن الشدة كانت بعدما تأكد إبراهيم من اصرار أبيه على كفره وأن عبارة الأب تكررت أكثر من مرة ويبعد أن يكون المراد عمه في جميع الآيات[10] .

ولنستمع إلى محاورة إبراهيم لأبيه في لين ورفق بقوله : « ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم انه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطا سوياً ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ » ولكن الأب المصر على ضلاله يرد على هذا اللين بعنف الجبابرة :

« ﴿ قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا ﴾ » فيرد إبراهيم بأدب الأبناء الذين أدبهم الله بهداه « ﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا ، واعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا ﴾ 41 ـ 48 مريم .

ولم يفارقه هذا البر واستمر يدعو الله ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ 86 الشعراء .

واستغفاره لأبيه المصر على الكفر والضلال مع أن إبراهيم قد قاطع من هم على شاكلته هو التزام بحق الأبوة وسلوك يمليه الواجب « ﴿ لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ﴾ » 4 الممتحنة . فهو من بواعث الأدب والصفح عن أخطاء الوالدين وليس مهادنة لمن يكفر بالله « ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن

(10) انظر تفسير الفخر الرازي ج 4 ص69 وما بعدها ط المطبعة الخيرية مصر ، والتحرير والتنوير/ محمد الطاهر بن عاشور ج 7 ص 311 ط الدار التونسية للكتاب .

موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، ان إبراهيم لأواه حليم ﴾ » 114 التوبة .

ويبرز لنا القرآن الكريم أساليب الدعوة وطرق المحاجة والاقناع مع قومه من يوم أن الهمه الله التفكير في ملكوت السموات والأرض بحثا عن الحقيقة ومعرفة الله (الآيات 75 - 83 ـ الأنعام) والمجادلة المفحمة للملك حيث طلب منه إبراهيم أن يأتي بالشمس من المغرب إن كان الهاً حقاً ﴿ فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الضالين ﴾ (258 البقرة) . ومجادلته لأبيه وقومه الذين يعبدون الأصنام وسؤالهم اسئلة محرجة « ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ » الآيات 79 - 82 الشعراء .

وكان ردهم ضعيفاً واهياً لا يستند إلى اقتناع شخصي وإنما هو مجرد متابعة للأباء وتقليد أعمى ، فحطم الأصنام وأعطاهم درساً عملياً يؤكد عجز الأصنام عن رد الأذى عن نفسها فعجزها عن نفعهم من باب أولى ، فكان ردهم رد العيي العاجز عن المنطق ولجأوا إلى القوة فألقوه في سعير ملتهب وقال الله للنار ﴿ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الاخسرين ﴾ » الآيات 51 - 70 الأنبياء .

كما يبرز لنا القرآن بعض الأحداث الهامة في حياة إبراهيم لتكون موعظة وعبرة للمؤمنين .

الأولى : ـ إن إبراهيم عليه السلام بلغ سن الشيخوخة ولم ينجب ولداً يرثه وبدأ يساوره اليأس فبعث الله الملائكة تبشره بغلام عليم فكان رده حزينا موجعا﴿قال ابشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ؟ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ » (53 - 56 الحجر) .

ولم تكن المفاجأة خاصة بابراهيم وحده بل كان وقعها أشد قوة على زوجه « ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ان هذا لشيء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد ﴾ » (72 - 73 هود) .

الثانية : ـ إن ابراهيم بعد أن نجاه الله من الاحراق بالنار قال إني ذاهب إلى

ربي سيهدين ودعا ربه بأن يهب له غلاما من الصالحين ، فتستجاب دعوته ويرزق بغلام حليم .

وحينما بلغ معه السعي يُبتلى فيه بأن يؤمر بذبحه ، فيلبي إبراهيم أمر ربه مسلما أمره لمن أعطى وأخذ ، ويعرض الأمر على ابنه فيسارع إلى الإجابة بالموافقة مستعيناً بالله على الصبر ، فيجازي الأثنين على حسن ايمانهما ويفديه بذبح عظيم « ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ » الآيات 101 - 111 الصافات) .

ولئن كان الذبيح هو إسحاق كما في سفر التكوين وما جرى عليه بعض السلف من الصحابة وتابعهم عليه بعض الباحثين[11] فإن فريقاً آخر يفهم من سياق الآيات أن الذبيح إسماعيل[12] .

وكتاب سفر التكوين وقعوا في خطأ فاضح ، ففي الاصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين الفقرات 1 - 2 قالوا : « وقد امتحن الله إبراهيم فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه اسحاق واذهب إلى أرض المزيا واصعده هناك محرقة » فهنا وصف الذبيح بأنه وحيد أبيه وأنه إسحاق بينما ذكر في الاصحاح السادس عشر الفقرات من 1 - 16 .

إن إسماعيل ولد وعمر أبيه ستة وثمانون سنة وفي الاصحاح الحادي والعشرين الفقرة 14 يقول أن اسحاق ولد وعمر أبيه مائة سنة وعلى هذا فليس إسحاق وحيد أبيه إذا كان هو المعنى بالذبح ! .

ويلاحظ أن هذه مغالطة مقصودة إذ أنها تمهيد لتناسي حق إسماعيل وذريته في أرض الميعاد كما يلاحظه المتتبع لأسفار التوراة . كما يمكن أن ندرك ذلك من قول سارة لإبراهيم « ابن الجارية لا يرث مع ابني » وإذا كان القرآن ليس صريحاً في تحديد الذبيح فإن القرائن تؤكد الرأي الذي يقول أن الذبيح إسماعيل .

أولا : ـ إن الإشارة إلى البشارة بإسحاق جاءت بعد الانتهاء من قصة الابتلاء (الصافات من 100 ـ 113) .

---

(11) انظر العبر ج 2 ص 38 وما بعدها تاريخ الطبري ج 1 ص 38 والفخر الرازي ج 7 ص 105 .

(12) التحرير والتنوير ج 23 ص 151 ، وانظر دائرة المعارف الإسلامية ط كتاب الشعب الطبعة العربية ج 1 ص 143 وما بعدها وتعليقات يوسف الدجوي ومحمد فريد وجدي وعبد الوهاب النجار على اخطاء المستشرقين .

ومن الكتابات الجيدة في هذا الموضوع ما كتبه عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء ص 95 وما بعدها وخصوصاً الردود الواردة بالهامش ط دار ابن الكثير بدمشق وبيروت .

ثانياً : قال الذبيح لابراهيم عليه السلام ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ الصافات 102 وقد وصف إسماعيل بصدق الوعد في قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ 54 مريم . ووصف بالصبر في قوله تعالى ﴿ وإسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ » 85 الأنبياء .

ونحن المسلمين نؤمن بأن إسماعيل وإسحاق كلاهما نبي ولا نفرق بين رسل الله ، ولا يعنينا من هذا إلا محاولة معرفة الحقيقة التي سعى إليها إبراهيم نفسه « ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال : أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ » 260 البقرة .

الثالثة : ـ الشفقة والحب للإنسان وكثرة دعائه لله سبحانه وتعالى بأن تشمل رحمته خلقه : فبالإضافة إلى استغفاره لأبيه كما سبق ، نجد قوله « ﴿ ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ »[41] إبراهيم ، ويدعو الله بأن يجعل البلد الحرام بلداً آمناً وأن يرزق أهله من الثمرات ، فالوادي غير ذي زرع ولا حاجة تدعو للاستقرار فيه سوى تعمير البيت واقامة دين الله ، كما يطلب من الله أن يبعث فيهم رسولا يذكرهم ويعلمهم الكتاب والحكمة (انظر 126-129 والبقرة و35-37 إبراهيم) .

وتستجاب دعوات إبراهيم وتصبح تلك المنطقة الجرداء موطناً خصبا تصب فيه خيرات العالم . « ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ »[27] الحج « ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ »27 العنكبوت .

وحينما يعلم من الملائكة أن غضب الله واقع بقوم لوط جزاء ما ارتكبوا من الكبائر طلب من الله الصفح والمغفرة : « ﴿ يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ » 74 - 75 سورة هود .

هذه لمحة سريعة تشير إلى بعض ملامح هذه السيرة العطرة لأبي الأنبياء ولم تُحط بجوانب العظمة فيها ولكنها تغني بعض الغناء في مواقف الاسوة والاعتبار « ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد ﴾ » 66 الممتحنة .